دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد الثالث, ديسمبر 2006م (ص5-8)

أضواء على الإسلام إلى الشرق وإلى البنغال خاصة في العصور قبل الحكم الإسلامي فيها

أ.د.أبو بكر رفيق*

المقدمة : *إن الإسلام هو آخر الأديان السماوية الذي جاء به خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد بن عبد الله المبعوث إلى البشرية كافة وقد قدر الله سبحانه وتعالى لمكة المكرمة من شبه الجزيرة العربية التى سماها الله تعالى* ***''بواد غير ذي زرع''*** *أن تكون مهدا لهذا الدين ومهبطا للوحي، ثم انتشر الإسلام من هناك إلى حيث انتشر، وكان حظ للشرق كبير في انتشار الإسلام وقبول هذا الدين الحنيف.*

ربما يكون هذا هو السبب وراء اعتبار الغربيين هذا الدين من الأديان الشرقية وتسميتهم تعاليمه بالفلسفة الشرقية حتى أنهم سموا من يعكفون على دراسة هذا الدين وبحثه ونقده باسم المستشرقين. حتى أصبح مصطلح ''الاستشراق'' مصطلحا علميا يطلق على مفهوم معين. وذلك على الرغم من أن الإسلام لا يرضى لنفسه أن يسمى بمثل هذه الأسماء و أن يتسم بكونه شرقيا أو غربيا. ومن الحقيقة التي لا تنكر أن الإسلام قد شاهد إقبالا عليه كبيرا من أهل الشرق أكثر منه من أهل الغرب منذ أن بزغ نوره حتى الآن. ومن أسباب ذلك أن العرب كانوا منذ عصر قديم على صلة وثيقة مع بلاد الشرق وأهله ثقافية وتجارية حتى أنهم وصلوا إلى الشرق الأقصى قبل العصر الإسلامي. وقد مهدت لهم لهذه الصلات سهولة المواصلات إلى تلك المناطق عن طريق البحر وخاصة المناطق الساحلية منها، إذ كانت السفن والفلك هي المراكب المفضلة لقطع المسافات البعيدة في القرون الماضية. وكان العرب يستوردون من الهند أجود أنواع السيوف التي تسمى بالسيوف المهندة كما كانوا يستوردون العود والصندل وأنواع البخور والتوابل من الشرق الأقصى.

بداية دخول الإسلام إلى الشرق:

لقد ذكر لنا التاريخ ثلاثة مواقع هامة لصلة الإسلام مع الشرق وبالخصوص في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي، وهي:

1- أن الإسلام دخل في أول وهلة إلى منطقة تسمى مالابار، وهي من المناطق الجنوبية الغربية من الهند عن طريق النشاطات الدعوية على أيدي التجار العرب الذين كانوا قد استولوا على الطرق البحرية في المحيط الهندي منذ عصر مبكر، حتى انتشر الإسلام في سواحل ''كورو منديل، وكونكان، من ولاية مهاراسترا الحديثة[1] وكان هولاء التجار قد أقاموا بعض المستوطنات بهذه المنطقة وتزوجوا بالنسوة الهنديات وأسلم على أيديهم عدد من الهندوسيين من أصحاب الطبقة المتدنية منهم خاصة.

روي أن المؤرخ الشهير المسعودي وجد في سنة 916م بمنطقة شاول (على بعد 40 كيلومترا إلى الجنوب من بومباي) مستوطنا للمسلمين وكان عدد سكانه عشرة آلاف مسلم[2] فإذا كان هذا هو الوضع في سنة 916م فعرف بالتأكيد أن الإسلام كان قد وصل إلى تلك المنطقة قبل ذلك بسنوات طويلة.

2- يرجع تاريخ دخول الإسلام إلى غرب شبه القارة الهندية وفي ولاية السند بالخصوص إلى حدث غزو محمد بن القاسم ضد راجه داهر، الحاكم الهندوسي سنة 712م لإنقاذ زمرة من التجار المسلمين ونسوتهم، الذين كانوا قد وقعوا على أيدي قطاع الطريق البحري من رجال راجه داهر الهندوسي. وكان محمد بن القاسم يومئذ ابن 17 سنة.
وكان قد استطاع أن يفتح منطقة واسعة تقع على ساحل نهر السند (Indus) ممتدة إلى

* الأستاذ بقسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية ونائب المدير بالجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ

ملتان[3]. إلا أن محمد بن القاسم لم يفرض على سكانها الإشعار بالإسلام بل تركهم على الحرية بين بقائهم على ديانة أبائهم أو دخولهم في الإسلام[4].

يبدو أن محمدا بن القاسم كان يخاف الموقف السيئ الذي سيقع فيه لو فرض عليهم تغيير دينهم القديم وردود فعل الناس حيث يصعب عليه وعلى أصحابه القليلين إقناعهم، لأنهم على قلة عددهم بعيدون عن مركز الحكم الإسلامى للدولة الإسلامية. وقد تأكدالبلاذري المؤرخ الشهير اتخاذ محمد بن القاسم هذا الموقف[5]. فلم يهدم محمد بن القاسم معابد الهنود ولا البوذيين في تلك المنطقة إلا أنه أقام المساجد هناك، وقيل إن الحكام المسلمين بعده أيضا اتبعوا سياسته في تلك المنطقة[6].

3- مع أن تاريخ بداية الحكم الإسلامي في البنغال يرجع إلى مطلع القرن الثالث عشر الميلادي وإلى سنة 1203م بالتحديد على أيدي اختيار الدين محمد بختيار الخلجي، لكن تاريخ دخول الإسلام فيها أقدم بكثير من ذلك التاريخ. فكان التجار المسلمون من العرب على صلة تجارية ودعوية بالبنغال وبالمناطق الساحلية منها خاصة منذ عصر مبكر، وكان هذا الاتصال في الفترة التي بدأ الإسلام ينتشر فيها إلى المناطق المجاورة للجزيرة العربية من أفريقيا وأوربا وآسيا[7] .

لقد كانت مهمة المسلمين الأولى في تلك الفترة هو نشر تعاليم الإسلام بحماس شديد من ناحية واستعادة الوحدة السياسية التي كانت سائدة في العالم في العصور القديمة والتي كان الإسلام يهدف إليها.

لقد كان العرب بفضل موقعهم الجغرافي وطابعهم التجاري وحماسهم الديني قد استطاعوا على أن يستحيلوا أقوى شعوب العالم في إدارة المراكب المائية والمواصلات البحرية في ذلك الحين[8]. فقد ازدادت نشاطاتهم مع مرور الزمن على امتداد المناطق الساحلية لجنوب آسيا، حتى امتدت إلى ساحل البنغال وبورما (ميانمار حالياً) وماليزيا وإندونيسيا ووصلت إلى بلاد الصين[9] .

أما بالنسبة لصلة العرب بالبنغال فقد وردت تفاصيل هذه الصلات في وثائق التجار والسياحيين والمؤرخين والجغرافيين من العرب بطريقة غير مباشرة، ولكن لا يصعب للباحثين تحديدها بأن تلك التفاصيل تصدق تماما على منطقة البنغال.

لقد تحدث بعضهم عن موانئ متطورة ومنتجات زراعية معينة وتوافر البضائع الثمينة فيها. وكل هذه التفاصيل تتفق تماما مع المنطقة الساحلية للبنغال ومنتجاتها. فأبو القاسم عبيد الله بن خراداذبه مثلا (ت300هـ/ 912م) عندما تحدث عن المناطق الهامة على ساحل المحيط الهندي بعد جزيرة سرنديب (سيلان) ذكر نهرا يسمى كودافريد، (جودافاري) في ساحل الهند الشرقي وذكر ميناء تسمى 'سمندر' حيث يتوفر فيها الأرز ويجلب إليها العود من مسيرة خمسة عشر أو عشرين يوما على نهر عذب من منطقة نائية تسمى كامرون الخ. وإليكم نص من كتاب المسالك والممالك فيما يلي:

''ومنها إلى مصب كودافريد ثلاثة فراسخ ومنها إلى كيلكان واللوا وكنجة مسيرة يومين وفيها حنطة وأرز ومنها إلى سمندر عشرة فراسخ وفيها أرز يحمل إليها العود من مسيرة خمسة عشر يوما وعشرين يوما في ماء عذب من كامرون وغيرها''[10].

ورد ذكر سمندر في كتابات الجغرافي الشهير أبي عبد الله الإدريسي (ت521هـ/ 1163م) فقال: إنها مدينة تجارية كبيرة ذات أهمية بالغة وذكر الأرز من أهم المنتجات الزراعية والعود من أهم البضائع التجارية الذي يجلب من كامرون الواقعة على مسيرة خمسة عشر يوما في ماء عذب[11].

فكل هذه المواصفات تتفق تماما مع تفاصيل ومزايا منطقة جنوب شرق بنغال الساحلية.
فنهر كودا فريد المذكور ليس إلا نهر جودا فاري، المعروف بالبنغال، أما ميناء سمندر فهي جزيرة ''سنديب'' الواقعة على ساحل البنغال الجنوبية، إذ ليست هناك جزيرة أخرى بنفس المواصفات في طريق طويل ما بين سرنديب (سيلان) وبورما غير التي ذكرناها. أضف إلى ذلك تشابه الإسمين.

ورد ذكر منطقة أخرى في كتابات الجغرافيين العرب، وهي جزيرة رامي، أو رهمي، فقال ابن خرداذبه إن جزيرة الرامي تقع بعد سرنديب. فيها حيوان عجيب وأناس عراة. كما ذكرها ياقوت بصفتها أبعد سواحل الهند على طريق بحر الصلاهيت (مضيق ملاكا حاليا)[12] فقد تأكد الدكتور مهر على، أستاذ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وعلماء آخرون بالنسبة لجزيرة رامى المذكور بأنها ليست جزيرة في حقيقة الأمر بل هي منطقة جبلية واقعة على قرب من الساحل، فزعم البعض أنها جزيرة. وأما الحيوان العجيب فهو الفيل، وأما الأناس العراة فهم جنس من البشر المحليين يسكنون في تلك المنطقة وهم من عبدة الطبيعة.

فإذا قارنا هذه التفاصيل بما ذكرها سليمان التاجر الذي عاش في منتصف القرن التاسع وترك تفاصيل هامة عن المناطق الساحلية في رسالته المعروفة، لا يبقى لنا أي مجال للشك في أنها تفاصيل حول البنغال. فقد ذكر سليمان التاجر أن ملك رامي كان ملكاذا سطوة كبيرة وبأس شديد، وكان له خمسون ألف فيل وجيش مكون من خمسة عشر ألف جندي[13].

ويجدر بنا أن نذكر أن المنطقة التي ذكرت مواصفاتها تقع حاليا في محافظة كوكس بازار، التي كانت جزء من شيتاغونغ حتى الى فترة قريبة، وتوجد الأفيال بها حتى في عصرنا هذا. كما يوجد جنس من البشر بتلك الصفات من يسكنون في جبالها، لم يتغيروا كثيرا ولم تتطور طريقة حياتهم حتى في يومنا هذا.

فمما لا شك فيه أن المسلمين العرب عامة والتجار منهم خاصة كانوا قد زاروا منطقة البنغال ونزلوا بها في طريقهم إلى الشرق الأقصى، وأعجبوا بأراضيها الخصبة وزراعتها المعجبة واقتصادها المتطور وتجارتها المزدهرة، حتى أنه لم يكد كتاب من كتب المؤرخين والجغرافيين أو رسالة الرحالين الذين كتبوا عن الهند وسواحلها لايخلو عن تفاصيل مناطق بنغال الساحلية. وهناك سؤال قد لفت أنظار الباحثين المعاصرين وهو ''هل كان التجار العرب اتخذوا بالبنغال مستوطناتهم أو سكنوا فيها بصفة دائمة كما سكنوا في مالابار، وسيلان وجاوا وسوماترا وأرض الملايو الخ. أم لم يسكنوا بها؟" إنهم يرون بأن هذه المنطقة التي ورد ذكرها في كتبهم ورسائلهم بمثل هذه الأهمية وأعجبوا بها إعجابا شديدا لابد من أن بعضهم كانوا قد اختاروها مسكنا لهم واستوطنوا فيها. وتأكدوا أيضا أن بعضهم نزلوا بالمنطقة واستوطنوا فيها خاصة بعد مواجهة النكبات والكوارث الطبيعية في البحر ما أدت إلى تدمير السفن والمراكب.

يشهد التاريخ المحلي لمنطقة أراكان، وهى ولاية من بورما على حدود مديرية كوكسبازار، بأن أحدا من ملوك أراكان المعروف باسم Tsu-la-Taing Tsa-da-ya الذي حكم المنطقة في فترة 340-342هـ/951-907م كان قد حارب ملكا آخر يسمى Thura-Tan فهزمه وأقام منارة تذكارية لتخليده بمنطقه ''Tset-Ta-going''.

وعليه تأكد الباحث الدكتور إنعام الحق بأن كلمة''Thura-Tan'' ليست إلا نطقا محليا لكلمة 'سلطان' العربية وكذلك كلمة ''Tse-Ta-going'' أيضا ليست إلا نطقا محليا لكلمة شيتاغونغ. وهذا يشير إلى أن السلطان المذكور كان من المسلمين العرب[14].

ومما يعرفه المحليون عن طريق الروايات المحلية أن عددا كبيرا من العلماء والشيوخ والزهاد والمبلغين كانوا قد قدموا إلى البنغال والى منطقة شيتاغونغ والمناطق المجاورة منها خاصة لنشر

الدعوة الإسلامية وتبليغ الدين الحنيف.

وتوجد مقابر وضرائح لعدد من الأولياء والشيوخ في مختلف أنحاء البلاد ونواحيها. فيروى بالنسبة لبعضهم أنهم كانوا قد وصلوا إلى هذه المناطق في القرن الرابع أو الخامس الهجري/ القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي أو قبله.

لقد تأكد المورخ الشهير منهاج الدين سراج في كتابه **طبقات ناصري** بأن قدوم المسلمين من التجار والدعاة إلى منطقة البنغال كان بفترة طويلة قبل قيام الحكم الإسلامي المنطقة في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي على أيدي اختيار الدين محمد بختيار الخلجي الذى أسس دولة إسلامية بالبنغال سنة 1203م.

المراجع:

1- انظر I.H.Siddique,**Islam and Muslims in South Asia: A historical Perspective**, P.I. Delhi, 1986. نقلا عن تاريخ وصاف، بومباي 1853م، ص301.

2- نفس المرجع، ص2

3- Anne Marie Scimmel. **Islam in the Indian sub continent**, Leiden: J.E. Brill, 1980 P.4

4- نفس المرجع والصفحة، نقلا عن **كتاب الهند** للبيروني، ترجمة إنجليزية ليدن، 1888م، ط2،1910م، ص11.

5- راجع البلاذري، **فتوح البلدان**، ص538.

6- المرجع السابق ص5 ,AnneMarie Schimmel

7- انظر د. مهر علي، **تاريخ المسلمين في البنغال**، ج1، أ،جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1985م، ص29.

8- انظر المرجع السابق، ص29، نقلا عن A.M.Fahmi,**Muslim Sea-power in the Eastern Mediterranian from the 7th to the 12th** century A.D., Cairo, 1966.

9- انظر المرجع السابق، ص 30، نقلا عن ، George Feldo Hourani, **Arab Seafaring in the Indian Ocan** . . . Princeton University Press, 1951

10- انظر **تاريخ المسلمين في البنغال** ج1/أص 30، الهامش2، نقلا عن **كتاب المسالك** طبع ليدن 1889م، ص63-64.

11- نفس المرجع، نقلا عن **نزهة المشارق**، ترجمة إيليوت ص 90-91.

12- نفس المرجع، ص 34-35، نقلا عن المسعودى، **مروج الذهب**، القاهرة 1938م، ص 129-130.

13- نفس المرجع، ص 35، نقلا عن **سلسلة التواريخ**، ترجمة ايليوت، ص 5.

14- راجع، د.إنعام الحق، الإسلام في الباكستان الشرقية (بنغالة) داكا، 1948م، ص17